التفكيكية المفهوم والنظرية

لطروش نانية

جامعة مستغانم

الملخص:يتناول هذا البحث منهجا من مناهج ما بعد البنيوية "التفكيكية" التي أضحت مرادفا لما بعد الحداثة. وقد انطلق من بيان مفهومها ثم رصد أهم مقولاتها ليسلط الضوء على المقاربات النقدية العربية التي استعانت بها كإجراء وانتهي البحث بعد كل أولئك إلى نتائج أهمها اضطراب المصطلح وضبابية مقولاته التي تتعدى آفاق النص .

الكلمات المفتاحية: التفكيك، القراءة، النص، الاختلاف، النقد.

Abstract: This paper examines a post-structuralist approach that has become synonymous with postmodernism.
It began from the statement of its concept and then monitor the most important categories to highlight the Arab critical approaches used as a measure and the research ended after all those results to the most important disturbance of the term and the uncertainty of his statements beyond the horizons of the text..

Keywords: disassembly, reading, text, difference, criticism..

لقد أثار دي سوسير ثورة في الفكر لما درس اللغة في ذاتها ولأجل ذاتها، وأتت ثمار جهوده اللسانية أكلها، فظهرت مناهج وتيارات جديدة كالبنيوية التي تفرعت بدورها إلى عدة أنواع، لتأتي بعده مناهج أخرى تنادي بتعامل النصوص تعاملا مختلفا باختلاف الرؤى نحو السيميائية، التأويلية، التفكيكية.....

وانتشر مصطلح التفكيكية في الساحة النقدية المعاصرة بوصفها حركة فكرية جديدة أحدثت انقلابا على البنيوية، فكانت "ما بعد البنيوية (Post Structuralisme) وقد تلتبس بما بعد الحداثة (Post Modernisme) فتترادفان أمام مفهوم واحد"[1].

ومن أشهر ممثلي هذه الحركة الفكرية "(جاك دريدا) و(جاك لاكان)، (فيليكس غاطاري)، (جيل دولوز)، (ميشال فوكو)، أمّا (دريدا) كعادته فقد وصمها بالاختزالية والتجريد وشامها بسمات الثبات الشكلاني"[1]، ولم يكتف بذلك وإنما قدّم مجموعة من الحجج ضد البنيوية لأجل الممارسة التفكيكية في أطرها النظرية"بعد أن صرح بأن القول بالتفكيك ما بعد بنيوي يعني بالمحصلة القول إنّ التفكيك مضاد للبنيوية"[1].وهكذا شكك بإمكانات البنيوية وزعزعها بعد تأكيده "أنها تعيش حالة انقسام بين ما تعد به وبين ما أنجزته أو حققته"[1] ليبني صرح استراتيجية جديدة متغيرة ومختلفة بكل المعايير لاسيما في رفضها للميتافيزيقيا العربية التي هي في نظر (دريدا) إيديولوجيا المجموعة العرقية الغربية، فنادت بانتهاء عصر تسلط العمل الأدبي وبدء عصر جديد هو عصر سلطة القارئ الذي همش زمنا بعيدا يرجع إلى عهد أفلاطون وصولا إلى (هايدغر).

أ- **مفهوم التفكيك**:شاع صوت التفكيكية باعتبارها منهجا نقديا يعنى بدراسة النصوص وتحليها وفق مقولات معينة على الرغم من أنّ (دريدا) "نفى أن تكون منهجا ونظرية عن الأدب، بل اعتبرها استراتيجية في القراءة، قراءة الخطابات

الفلسفية والأدبية والنقدية من خلال توجيه الأسئلة وطرحها من الداخل"[1]، كما أقر بصعوبة بل استحالة الإلمام بهوية التفكيك، "ففي إحدى رسائله إلى صديق ياباني في عام 1985، صرّح (دريدا) وبطريقة قطعية استحالة تعريف التفكيك أو تحديده وأنّ هذا التعريف أو التحديد سيكون منقوص المصداقية على أقل تقدير إنّ أي جملة من نوع التفكيك هوس أو التفكيك لبس هي جملة تفتقر وبشكل قبلي إلى الملائمة أو لنصفها بالحد الأدنى فنقول إنها جملة خاطئة"[1]، ولعله زرع بذور حركته الفكرية بدء من عدم الثبات وعدم الاستقرار في تحديد المفهوم. ومن ثم راح البعض يعتبرها "مقاربة فلسفية للنصوص أكثر منها أدبية شأن (بشبندر) ورأى أنها نظام فلسفي يرمي إلى التواصل من قبيل التفكيك ما جعلها إبداعا قرائيا في المقام الأول، وغدت منهجا يثير الشك حول علاقات الدوال بالمدلولات في كل القراءات السابقة"[1].

ومهما يكن من أمر، فإن اعتمادها في قراءة النصوص ثبت وتحقق حتى وإن عدّ "مضللا في دلالته المباشرة على أنه ثر في دلالته الفكرية فهو في المستوى الأول يدل على الهدم والتخريب والتشريح، وهي دلالات تقترن بالأشياء المادية المرئية، لكنه في مستواه الدلالي العميق يدل على تفكيك الخطابات والنظم الفكرية"[1]، فالمعنى الأدبي يكون واحدا أو محددا أو واضحا، وذلك لخضوعه لنوع من (الاختلاف) (لا التوافق) و"التفكيك لا التجميع، فالمصطلح عنده لا يعني الهدم إنما إعادة البناء"[1].

وبهذا أعطى التفكيك طريقة "للنظر والمعاينة إلى الخطاب وهو يقف إلى الجانب الآخر من الطروحات التاريخية والسوسيولوجية والسيكولوجية والبنيوية

الوصفية هدفه تحديد شغل المخيلة وافتضاض آفاق بكر أمام العملية الإبداعية"[1]، فهو "فعالية فكرية نقدية بناءة ... تسعى لكشف الموانع المعيقة وتبديد الأوهام الخادعة، وإطلاق إمكانات جديدة للتفكير والعمل"[1]. وهكذا توسع أفق التعامل وفق هذه الاستراتيجية التي احتضنها النقد شأن الحقول الأخرى.

ب- مقولات التفكيكية:للتفكيكية مقولات تشكل الدعائم الثورية على المناهج السابقة ومنها:

ب-1- الاختلاف: (**Différence**): الاختلاف (Différance)

تعد هذه المقولة إحدى المرتكزات الأساسية التي اعتمدها (دريدا)، وقد "حدّد مفهومه لها في بحث بعنوان الاختلاف نشره في كتابه الكلام والظاهرة (La voix et le phénomène)"[1] وهذا المفهوم الدريدي يقتضي شرح دلالتها اللغوية والمعجمية (Différence) حسبما وردت في كتابات (دريدا) ومن هنا "فثمة (To differ) وهو فعل أو مصدر يدل على عدم التشابه والمغايرة والاختلاف في الشكل والخاصية و(Diffère) وهي مفردة لاتينية توحي بالتشتت والانتشار، والتفرق والبعثرة و(To difer) ويدل على التأجيل والتأخير والإرجاء والتواني والتعويق وواضح أن دلالة(To differ) ، (differ) مكانية"[1].

وفي القاموس الفرنسي الفرنسي عمد إلى الفعل الفرنسي (différer) ليستثمر صيغته:

- الصيغة اللازمة التي تدل على الشيء المغاير المختلف (Dissemblable).
- "الصيغة المتعدية التي تدل على إرجاء أو تأجيل أمر ما إلى وقت آخر مشتقا مصدر الاختلاف (Différence) من الصيغة الأولى ذات الدلالة المكانية أساسا، أما الصيغة الثانية ذات الدلالة الزمانية، فقد اشتق منها مصدرا جديدا لا عهد للغة الفرنسية به هو الإخلاف (Différance)"[1].

وفي هذا الصدد يقول (دريدا) "إنّ الصفة المشتقة من الفعل خالف/ اختلف (Différer) أي مغاير (Différent) التي قياسا عليها ابتكر هذا الاسم (DifférAnce) تجمع صنفا من المفاهيم اعتبرها نسقية، وغيرها قابلة للاختزال يتدخّل كل منها بل تتزايد فعاليته في لحظة حاسمة من العمل تحيل المغايرة أولا إلى الحركة (النشطة الساكنة) التي تقوم بفعل الاختلاف، وإحالتها هذه تتم عبر المهلة والتقويض والإرجاء والإحالة والدوران والتأخر"[1]. واقترح دريدا هذا المصطلح مستفيدا في صناعة اللفظة الجديدة من أمرين: "أولهما قابليتها لتضمن معنيين مختلفين أحدهما بمعنى الاختلاف والآخر بمعنى الإرجاء، وثاني الأمرين هو الإفادة من تلاعب هذه اللفظة الجديدة بثنائية الصوت والكتابة حيث تلفظ (DifférAnce) بنفس الطريقة الفونيتيكية التي تلفظ بها لفظة الاختلاف الدارجة بحرف ال(E) عوض ال (A) ولا يستبين التمييز أو الفارق بالاحتكام إلى المكتوب وحده"[1].وفي هذا الشأن

يحدد عبد الكريم الشرقاوي ترجمة المفردة بكاملها إلى "الاخ(ت)لاف بقراءة التاء بين القوسين بحمل على كلمة الاختلاف و بتأجيل الحرف وهذه هي وظيفة القوسين، نحصل على إخلاف فالحرف الذي يتلاعب به (دريدا) في مفردته هو حرف علة، ولا يكاد الفارق يبين بينه وبين الحرف الذي جاء هو ليحل محله"[1] .

وما يتوجب توضيحه أنّ الوظيفة المهمة للاختلاف هي ما يصطلح عليها (دريدا) "بالكتابة البدئية (Archi- writing) وهي نمط من الكتابة نفسها، أي ذات ميزة قبلية تكون نموذجا متصورا للكتابة قبل تجربة الكتابة نفسها، فهي قائمة على المعرفة بالحاجة إليها قبل حصول التواطؤ لها، إنّ الكتابة البدئية لا يمكن تعريفها موضوعيا، لأنها غير قابلة للاستقراء والوصف، لكنها حسب (دريدا) فهي كل شيء"[1].وكان الأب الروحي للتفكيكية قد استوحى فكرة الاختلاف من (دي سوسير) الذي يرى أنّ "الاختلاف بين وحدات صوتية ودلالية يظهر كمفتاح العقد بالنسبة لاشتغال اللغة، ذلك أنّ وظائف النظام اللغوي لا يمكن أن تحدد بصورة مستقلة بعضها عن البعض الآخر، بل فقط بالنسبة للتداخلات فيما بينها"[1].

كما يعطي (دريدا) مفهوما للاختلاف ويوضحه بقوله "إنّ الإرجاء هو ما يجعل الدلالة غير ممكنة إلا إذا كان كل عنصر يقال إنه حاضر ينتسب إلى شيء محتفظا في ذاته بعلامة العنصر السابق، وتاركا نفسه تحفرها علامة علاقته بالعنصر القادم"[1].وتجدر الإشارة في هذا المقام إلى تعدد الترجمات لهذا المصطلح (كالتباين)و(التأجيل) والإخلاف، غير أن جابر عصفور ضم صوته إلى كاظم جهاد الذي يُؤثر الاختلاف، ذلك أنّ هذه الترجمات تجافي استخدام الفيلسوف (دريدا) للمفردة معللا ذلك بأنّ هوية الشيء المظنون فيها هوية متطابقة مع نفسها تنطوي على اختلاف تكويني يحول دون تطابقها مع نفسها، فالاختلاف هو الذي يقوم بفعل الإرجاء والتأجيل والإخلاف وليس الإرجاء والتأجيل واقعا على الاختلاف من غيره"[1].

ب-2- التمركز حول العقل:إلى جانب الاختلاف نلفي مصطلحا آخر لا يقل أهمية في النظر إلى الخطابات الفلسفية، وهو مصطلح التمركز العقلي (Logos centrisme) "وقد وظف (دريدا) هذا التمركز لكي يكشف أنّ الفكر العربي عموما – مهما تشعب وتعقد- يعود في النهاية ليعلي من شأن الكلمة المنطوقة (Logos)، ويستبعد الكلمة المكتوبة بوصفها صورة للنطق وتمثيلا ينوب عنه في غياب المتحدث، ولهذا فإنّ المفردة تعني اللفظ أو الصوت اللفظي غير أنّ ارتباط هذا الصوت لكينونة متعالية جعلها تخص قوى التحكم بالكون في الموروث الإغريقي، وتخص الذات الإلهية في الفكر المسيحي"[1].ذلك أنّ اللوغس (Logos) يعرَّف بأنه

"لفظة يونانية تعني الكلام أو المنطق أو العقل، وبذا فإنّ حقلها الدلالي متشعب بحيث تتطابق وما يذهب إليه (دريدا) في محاولته هدم اليقينية المطلقة في الفكر والثورة على سكونيته، وبذا فإنّ دلالة المصطلح تتشظى إلى حضور وتمركز الكلام أو المنطق"[1]، وبهذا يبين ثورته على النظام الغربي الكلاسيكي، فهو يرى أنّ "التراث المتمركز حول اللوجوس دائما ما يضع أصل الحقيقة في اللوجوس أو الكلمة المنطوقة أو صوت العقل مصرّا على التمركز حول النص وإدماج الكتابة في الكلام لاسيما في تفضيله للكتابة الصوتية (الكتابة كمحاكاة للصوت)، وأدى التمركز حول اللوجوس إلى التعارضات البديهية (الصوت، الكتابة)، (الصوت، الصمت)، (الوجود، عدم الوجود)، (الحضور، الغياب)، (المدلول، الدال)"[1]وبنقده لهذه الفكرة إدانة للفكر الغربي على أنه فكر متحيّز عنصري يُنصِّب نفسه بؤرة مركزية للعالم، ويسعى إلى تفسير العالم بإخضاعه إلى رؤية معينة، ودلالة موحدة منبعثة من أناه"[1]، لذا نجد (دريدا) يصر على تقويضه بسعيه إلى إقامة فكر لا مركزي جديد، ووقف جهده لنقد التمركز الصوتي عند اللسانيين الذين يمنحون اللغة المحكية أولوية على اللغة المكتوبة، ولا تنفصل تلك الأولية عن الماورائية المثالية للحضور"[1].وفي ضوء هذا المعطى "وظّف (دريدا) قدرته الحوارية العالية مستعينا بمقولة (التمركز العقلي) للعمل على إنشاء هيكل نظريته الشاملة بمواجهة التراكم الهائل للميتافيزيقيا الغربية بعد أن أفلح بتجزئة الألفاظ والفرضيات الأساسية، ثم تطوير الأبنية التناقضية والحجج التناقضية التي تنطوي عليها لهذه الألفاظ والفرضيات، انتقل إلى صلب موضوعه ألا وهو تفكيك

النظم العامة للفكر الغربي بدء من أفلاطون...وصولا إلى معاصريه من الفينومينولوجيين الذي نشأ وإياهم على إفراز تلك النظم من أمثال (هيدغر) و(هوسرل)"[1]، وكان هذا الأخير قد تلقى انتقادات (دريدا) بقوله إنه يحسبه بين الورثة الرئيسيين للميتافيزيقيا الأوروبية"[1].يتبين من مجمل ما سلف أنّ (دريدا) قام بسياسة هدم لبناء، هدم مركزية الكلمة، و"القول بأنّ الفاعل الواقعي هو المتكلم بحسب سوسير، وبناء فكرته القائلة إنّ اللغة بنية من الإحالات اللانهائية أي التعدد اللانهائي للمعنى واعتبار الفاعل هو الكاتب"[1].

ويقودنا السياق هنا إلى مقولة أخرى من مقولاته الرئيسة.

ب-3- علم الكتابة:عُرف- أيضا – بعلم النحوية* الذي تجلت معالمه في كتابه (علم الكتابة) الصادر عام 1968، ويدعو فيه إلى "أفضلية الكلام على الكتابة مبينا أنّ جميع خصائص الكتابة مثل غياب المتكلم ومن ثم غياب وعيه تضاف للمعنى، يمكن أن تستند إلى الحديث الشفهي، فبدلا من تصوّر أن الكتابة مشتق طفيلي من التعبير المنطوق يمكن أن يصور الكلام على أنه مشتق من الكتابة"[1].ولم يعتبر (دريدا) الكتابة أمرا عاديا أو مفهوما، إنما اعتبرها علما، ويتجلى هذا في قوله "سأدعوه بعلم النحوية ولأنّ هذا العلم لم يوجد بعد فإنه لن يمكن لأحد أن يتنبأ بما سيكون عليه هذا العلم، لكنه يملك الحق في أن يكون ومكانه معد سلفا"[1].

وفي هذا السياق نحاول رصد معناه الاصطلاحي فهو أجنبي (Grammatologie)، مصدر بالكلمة الإغريقية (Gramma) التي تدل في الأصل على الحرف (Lettre) وقد تناقلتها اللغات اللاتينية ومنها الفرنسية التي دخلتها في نهايات القرن الثامن عشر بشكل(Gramma) وصارت من لواحق كثيرة من كلماتها برقية (Télégramme)، كتابة مشفرة (Cryptogramme)"[1].

ومن وجهة أخرى فإنها لا تعني الحرف المكتوب وفقط بل كانت تعني وحدة الوزن... وهي حرف من الألف بائية والكتابة عن كل شيء صغير..."[1].

وفي كتابه (الكتابة والاختلاف) يعرّف (دريدا) الكتابة في قوله:"إنّ فعل الكتابة ليس تحديدا ملحقا بغائية قبلية وهو يوقض معنى هدف الغائية والحرية أن فعل الكتابة انقطاع عن وسط التاريخ التجريبي وصولا لتحقيق وفاق مع الجوهر المغيب للتجريبية المجردة"[1]، وبذلك فإنه يعطي بهذه الحرية الجديدة واقعا جديدا إلى الوجوه، ومنه فإن مفهوم الغراماتولوجيا ما هو في الحقيقة إلا دعوة لإعادة النظر الجدية في دور الكتابة لا بوصفها كيانا ذا خصوصية.

ويستفيض حديث (دريدا) عن علاقة الكتابة بالكلام فهي ضرورة لا يمكن الاستغناء عنها، "إذ لا وجود لمجتمع من دون كتابة، ومن دون علامات على الأرض، فلا يمكن تصور مجتمع من دونها، وإلا سيبقى أسير الأساطير والطوباويات، ومن هنا تكتسب الكتابة أهميتها"[1].

وفي كتابه هذا "تناول معالجة الحروف الأبجدية، التقطيع، القراءة والكتابة ابتغاء خلخلة كل ما يلحق مفهوم وقواعد العلمية بالمركزية العقلية الصوتية"[1] ليقرر فيما بعد أنّ المسميات سواء الفكرة أو العلم، وبخاصة فكرة الغراماتولوجيا لا تعني شيئا.وردا على ما ورد فالكتابة في التفكيكية أصبحت هي بادرة القول بعدما كانت فيما قبلها تابعا للفكرة أو للنطق، وأصبحت هي اللغة والنطق في آن واحد، ولم تعد وعاء لحمل وحدات معدّة سلفا، بل أصبحت هي صيغة إنتاج هذه الوحدات وابتكارها وتخليقها، وصار المبدع هو مصفاة الكون التي تمر من خلالها وحسب تجارب البشرية الإبداعية الشعورية واللاشعورية بوساطة لغة تقف ضد المنطق"[1].وبهذا يكون (دريدا) قد نسج استراتيجية جديدة للقراءة تتعامل مع النص داخله وخارجه هاربة من كل الثوابت باحثة عن المتناقضات وما يؤكد هذا طرحه المتعلق بمقولة الأثر.

ب-4- الأثر:يرتبط الأثر (Trace) أيما ارتباط بالكتابة باعتبار هذه الأخيرة إحدى تجلياته (عند دريدا) "فمن خلاله تنتعش ويصبح مفعوله سحرا فيتحرك من أعماق أعماق النص ليتسرب داخل أغواره مؤثرا على كل ما حوله، ومع أنه عازف كل الانفعالات الصادرة عن النص إلا أنه يستحيل لمسه"[1].

وكان (دريدا) قد قدم الأثر بديلا عن (الإشارة) عند (دي سوسير)، وإن صرح أن الأثر الخالص لا وجود له ومع هذا فإنه يعد مبدأ أساسيا للكتابة ليس مكانيا ولازمانيا، لكنه يتعلق بالمعيش (الذاكرة) ويشكل الأصل المطلق للمعنى ... فمفهوم الأثر يلغي التدرج الذي نقيمه بين الصورة السمعية والصورة الخطية"[1]، كما

اعتبره "أصل الأصل ... هو الأصل المطلق للمعنى عموما، وهو ما يعاد قوله مرّة أخرى، الأثر هو الاختلاف الذي يفتح الظهور والدلالة، ما دام الاختلاف هو الأثر الخالص"[1]. من هنا ينفي (دريدا) أن "يكون هناك أثر أصل نقي، بل إنّ الأثر الأصل هو بنية الفناء والتلوث لأنه ينطوي جوهريا على المحور الذي يقضي عليه في لحظة البروز والحضور مؤكّدا مرّة أخرى على أنّ الأثر النقي هو الاختلاف"[1].

ومن ثم اكتسب الأثر أهمية كبيرة، إن اعتبر السبب والهدف في آن واحد، "فالنص لا يكتب إلا من أجل (الأثر) لذا كان سابقا عليه ليصبح في النهاية هدفا واحدا لكل من الكاتب والقارئ، ويصير هو التواصل الأزلي قبل النص وبالنص وبعده ... ويبقى الأثر بعيد المنال، وسوف تبقى معه بذلك كل القراءات التفكيكية قراءات مفتوحة غير محددة ولا نهائية"[1]، لذا تبنى حقل الأدب هذه المقولة واحتضنها لا سيما الشعر باعتبار أنّ لغته نابعة عن تجربة شعورية مليئة بالصور والألفاظ الرمزية التي تجعل الباب مفتوحا أمام شتى القراءات بعد أن بثّت في نفس القارئ سحرا يجعل كنهه.

وإذا فتحنا قاموس الدرس التفكيكي فإنا نلقى مصطلحات أخرى كالانتشار والتشتيت (Dissémination) والذي بموجبه يصبح النص منتجا للعديد من الدلالات والإيحاءات والمعني التي تتكشف، حيث تنبت في أرضيته اللغوية وتنثر هباء معنويا تطير به رياح القراءة في كل اتجاه، فيتبعثر المعنى ويتشتت ويتعدّد المركز، ويتبدد التأويل وتتكاثر القراءات ويغدو النص ذلك الواحد المتعدد"[1].

ويمكن في هذا السياق أن نضيف مصطلحا آخر عرف بالتكرارية (Terabilite) أو يدعوه (دريدا) بقابلية تكرار وفيها نلفي معارضة أفعال الكلام الإنجليزية- الأمريكية (أوستين- سيرل) والبنيوية الفرنسية (مارتنيه، غريماس) اللتين تتفقان على التأكيد بأنّ تكرار إشارة ... يميل إلى تقوية معناها وزيادة التماسك الدلالي لسياقها"[1].

لذا رأى (دريدا) فيها تصنيفات مختلفة وتفريعات متعددة، وإلى جانب هذا نجد مصطلحا آخر يتمثل في المأزق التأويلي (Aporie) الذي يصبو نحو التعددية والاحتمالات، فبعد أن "وجّه التفكيك اهتماما كبيرا لتقويض النظريات التقليدية أعلن ولادة جديدة للنص بوصفه لعبة حرة للدلالات تنفتح باستمرار بتعدد القراءة"[1]، وبذلك لن يكون للنص التفكيكي أحادية المعنى أو محدوديته بل لا نهاية له.ويضاف - إلى المصطلحات التفكيكية – مصطلح الملحق/ الإضافة (Supplément) حيث أخذه (دريدا) من (جان جاك روسو)، واهتم بدراسته بخاصة في كتابه النحوية، إذ يرى "أنّ (روسو) لا يختلف أبدا عن التفكير الغربي الميتافيزيقي حينما جعل الكتابة تابعة للفظ، وعرفها على أنها مجرد إضافة وملحق على اللفظ وتابع له ومشتق منه، مهمته خدمة الصوت فقط ... ويقول (دريدا) إنّ الملحق لا بد أن يشبه ويختلف في ما يلحق به أو عليه، ولا بد أن تستدعيه حالة نقص جوهري في ما أضيف الملحق إليه، ويكون كذلك زيادة على الأصل"[1].

وبهذه المقولات التفكيكية يكون (دريدا) قد قوّض المفاهيم المتعارف عليها وشتتها ليقيم فكرا تفكيكيا لا شاطئ له كما لا بحر أيضا، إنه فكر يقفز فوق كل الأسوار هاربا من الهروب.

ج- تلقي التفكيكية في النقد العربي:في خضم انشغال النقد العربي بالبنيوية وانبهاره بها، كان (دريدا) هناك قد أحدث ثورة تحت شعارات غير مألوفة تنادي بإلغاء التمركز نحو العقل والاختلاف. فحق لهذا التيار أن يدعى ما بعد البنيوية كونه قد فتح أبوابا موصدة إلى ما لا نهاية ... وإن تقاطع معها في محق المؤلف وإبادته.

فتسارعت الأصوات تنادي – عندنا- بتجاوز البنيوية في مهدها العربي، فما كانت إلا صرخة مولود أعلنت وفاته حديثا لتنبئ بميلاد مولود بل مواليد جدد، تزامن ظهورهم هنا وهناك من تأويلية وتفكيكية وجمالية التلقي.

وتعد التفكيكية أكثر المناهج جدلا في المشهد النقدي العربي لما حملته من رؤى زعزعت إيمان الناقد بتوحيد المعنى، "ويجمع معظم الدارسين على أنّ أول دراسة تفكيكية عربية تعود إلى سنة 1985، وهي محاولة عبد الله الغذامي في كتابه (الخطيئة والتكفير)"[1]، "فهو رائد هذا التوجه بلا منازع*، ومما ينبي عن ريادته حيرته في ترجمة مصطلح (Déconstruction) بين النقض والفك والتحليل إلى أن استقر رأيه على كلمة التشريحية"[1].

ولعل تأخر تمثلها في الخطاب النقدي العربي أمر بديهي به فذاك شأن المستورِد المستهلِك ... فأنى له التحكم في الآليات وضبط التسميات؟ وما صخب الإشكاليات إلا من نبع هذا.

وتتابع محاولات إرساء تفكيكية عربية سواء أتعلق الأمر بالتنظير أم بالتطبيق تحت تأثير عوامل شتى*، وبفضل ما أطلقته من حريات في القراءات وفق استحضار المغيّب الكامن للبحث عن خصوبة لا متناهية للمدلول ... ومن ثم لا نهاية للقراءات، ولا صحة لأي قراءة، إن هي إلا إساءة قراءة وما يؤكد هذا تبجيل الغذامي لها إذ يفصح "أن التشريحية كاتجاه نقدي عظيم القيمة، من حيث إنها تعطي النص حياة جديدة مع كل قراءة تحدث له، أي أن كل قراءة هي عملية تشريح للنص، وكل تشريح هو محاولة استكشاف وجود جديد لذلك النص، وبذا يكون النص الواحد آلافا من النصوص يعطي ما لا حصر له من الدلالات المتفتحة أبدا"[1]. وعزّز اهتمامه بها في كتابه الثاني (تشريح النص، 1987) الذي انضوت تحته أربعة فصول قارب فيها تفكيكيا بعض النصوص الشعرية لشعراء معاصرين ... كقصيدة (الخروج) لصلاح عبد الصبور لما فيها من أساليب فنية راقية"[1].وتحت مظلة التشريحية طالعنا الغذامي بكتاب آخر (القصيدة والنص المضاد)[1] سنة 1992، وفي ثناياه مقاربة لمجموعة من الأشعار القديمة والحديثة، وأشار إلى بعض ما تبنته مثل: المختلف المضاد، الحضور والغياب...

لقد أثار الغذامي- ولا يزال- عواصف في الساحة النقدية في خضم ممارسته وحديثه عن ثورة الثورات المنهجية (التفكيكية) فهذا مؤيد لصنيعه وآخر غير راض بحجة أنّ "تشريحية الغذامي وتفكيكية (دريدا) بينهما برزخ لا يبغيان"[1].

وهكذا تصاعد أفق الإلمام والاهتمام بالتفكيكية، إما محاولات لتبيئة المصطلح ليفقهه القارئ العربي، وإما مناقشة لمقولاتها أو إثراء أفكارها، وحتى ممارستها، فمن الدراسات ما كان غير واضح المعالم إنما جاءت "مغلقة بمفاهيم (نظرية القراءة) على النحو الذي نجده عند حسين الواد الذي قدّم تجربة قرائية طيبة وسمها بالقراءة والنصوص أو جدلية الحد والانعتاق مع نص لمحمود مسعدي، إضافة إلى تجارب قرائية أخرى، أشار إلى جلّها الأستاذ فاضل ثامر في دراسته من سلطة النص إلى سلطة القراءة"[1].

وفي مضمار القراءات التفكيكية نلفي (بسام قطوس) يدرس قصيدة (تنمويه الجياع)[1] للشاعر العراقي محمد مهدي الجواهري بعد أن صرّح بتبنيه مقولة (دريدا) التي مفادها إن التفكيك استراتيجية في القراءة، وأقام قطوس قراءته على "دراسة بنيتي النص الشعري، البنية السطحية التي تحمل هدمه وتفكيكه من داخلها، والبنية العميقة من حيث إنها تحمل بنائيتها وانسجامها الذي لا يخفى على القارئ، وبين البناء وهو فعالية إنشائية من الشاعر والتفكيك وهو فعالية قرائية من القارئ"[1]، فكانت تجربته هذه "من التجارب النقدية المعاصرة التي حاولت التطواف بين أرجاء

حقل الشعرية العربية لاستكشاف أبعادها وعناصرها باستثمار محك الفعاليات التفكيكية"[1].

تستوقفنا – والسياق هذا – دراسة أقل ما يقال عنها إنها جادة، دراسة أنطقت الصامت، "تلكم هي دراسة مهدي أسعد عرار لقصيدة (محمود درويش)، (كان ما سوف يكون) والموسومة بالتفكيكية بين النظرية والتطبيق كان ما سوف يكون نموذجا"[1]، حيث اشتغل فيها على تعدد المعاني، والتناص وانفلات الدال من قيد المدلول. والتأمل في دراسته هذه يجبرك على الاعتراف إلى حد كبير... ينِمّ عن قطعه أشواطا من الوعي بكنه التفكيك وتجربته وإن كانت التفكيكية نفسها لا تعترف بجودة التفكيكيين ما دام كل قراءة إساءة قراءة.

وعلى صعيد الجزائر نلفي لفيفا من الباحثين – قد اهتم بالموجة الثائرة- سجّل الدكتور الناقد عبد المالك مرتاض اسمه فقارب قصيدة (أين ليلاي) لمحمد العيد آل الخليفة، وقبلها (ألف ليلة وليلة)، كما حلل الخطاب السردي والمتمثل في رواية (زقاق المدق، 1995). ومن عجب أن ينصب الباحث (يوسف وغليسي) "عبد الملك مرتاض سيد النقد التفكيكي بلا منازع"[1]، مع العلم أنه لم يجعل دراسة واحدة تفكيكية خالصة بل مزاوجا بينها وبين السيميائية، وإلى جانب هذه تجد مقاربات أخرى كمقاربة الطاهر رواينية في (الكتابة وإشكاليات المعنى – قراءة في بنية التفكك في رواية تجربة في العشق للطاهر وطار)[1]، كما أسهم عمر أزراج في تخصيب التفكيكية نظريا بترجمته لثلاثة نصوص من قاموس (فونتانا للفكر المعاصر)"[1].

ناهيك عن الباحث الراحل بختي بن عودة الذي شغف بالحداثة أيما شغف، فأطر به رنينها حينها وبعدها، فكتب هذا الغائب الحاضر بلغة الاختلاف ممارسا النقد تنظيرا وتطبيقا، فقارب شعرية رشيد بوجدرة منطلقا من "لقاح"[1] و"من أجل نوافذ الحلم"[1]، وفي مقاربته مسحات فلسفية قام فيها "بمساءلة الآخر واستدعائه إذ النص، الكتابة هو ما يتكوكب من أصوات وإحالات وخطابات... فالنص مجازا إمكان لقول الحقيقة من دونه، لأن الخطاب أصلا ذو طبيعة مجازية وفي البدء كان المجاز"[1]، وهكذا أنطق بختي بن عودة ما هو صامت وشتت ما كان لحمة واحدة منطلقا من أنه "ليس هناك من نص متجانس هناك في كل نص حتى في النصوص الميتافيزيقية الأكثر تقليدية، قوى عمل هي في الوقت نفسه قوى تفكيك للنص، هناك دائما إمكانية أن تجد في المدروس نفسه ما يساعد على استنطاقه"[1]

ويمكن أن نستخلص مما سبق أن مفهوم التفكيكية زئبقي، كلما ظن الباحث أنه وصل إلى كنهه انفلت منه، وأن مقولاته قلبت للدرس اللغوي والنقدي ظهر المجن إذ لا عهد للعرب والغرب بها، فهي وإن انطلقت من الفكر الغربي فإنها لا تريد الوصول إليه.ولا تزال التفكيكية تستقطب اهتمام اللسانيين والنقاد العرب تنظيرا وإجراء، فسعى البعض إلى تأصيل المصطلح أي توجيهه وفق المناخ اللساني العربي نحو مصطلح التقويضية التي نادى بها الدكتور عبد المالك مرتاض، كما اتسع نطاق المقاربات التي اتخذته منهجا أو إجراء، لأنها أعطت الضوء الأخضر لحرية القراءة فغدت قراءات ومنحت الناقد حماية إذ لا خطأ و لا صواب...

إن التأمل في أدوات ومقولات التفكيكية ليفضي بنا إلى التأكيد أنها استراتيجية كما دعا صاحبها ...استراتيجية نرى أنها تقفز فوق أسوار النص لتبني مشروعا قائما على هدم الأصل جاعلة للكيان الغائب وجودا وللحاضر تغييبا وتشتيتا، أليس من العبث السير وراء عبثية يريدها (دريدا) فهو لا يثبت على رأي و لا يستقر على فكرة.

الهوامش:

[1]- وغليسي يوسف، مناهج النقد الأدبي، جسور للنشر والتوزيع، الجزائر، ط2، 2009.، ص:168.

[2]- الرويلي ميجان والبازعي سعد، دليل الناقد الأدبي، ص:79.

[3]-جان غراندان، المنعرج الهرمينوطيقي للفينومينولوجيا، تر: عمر مهيبل، الدار العربية للعلوم، منشورات الاختلاف، ط1، 2007،ص:164،165.

[4]- إبراهيم عبد الله، التفكيك- الأصول والمقولات- عيون المقالات، النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط1، 1990، ص:35.

[5]- قطوس بسام، المدخل إلى مناهج النقد المعاصر، ص:143.

[6]- المرجع السابق، ص ص:163،164.

[7]- عزت محمد جاد، نظرية المصطلح النقدي، الهيئة العامة للكتاب، (د ط)، 2002، ص:304.

[8]- إبراهيم عبد الله، التفكيك- الأصول والمقولات- ص ص:45،46.

[9]- المرجع نفسه، ص:306.

[10]- المرجع السابق، ص:147.

[11]- حرب علي، هكذا أقرأ ما بعد التفكيك، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 2003، ص:145.

[12]- المرجع السابق، ص:49.

[13]- إبراهيم عبد الله، التفكيك- الأصول والمقولات- ص:50.

[14]- وغليسي يوسف، مناهج النقد الأدبي، ص:360.

[15]- المرجع نفسه، ص:361.

[16]- البنكي محمد أجمد، دريدا عربيا، قراءة التفكيك في الفكر النقدي العربي، دار الفارس للنشر والتوزيع، ط2005،1، ص:175.

[17]- الشرقاوي عبد الكريم، لغات وتفكيكات في الثقافة العربية، دار توبقال للنشر، ط1، 1998، ص:190.

[18]- المرجع السابق، ص:55.

[19]- زيما .ف. بيير، التفكيكية دراسة نقدية، تعريب: أسامة الحاج، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط1، 1996،ص:25.

[20]- المرجع نفسه، ص:76..

[21]- سلدن رامان، من الشكلانية إلى ما بعد البنيوية، تر: جابر عصفور، المجلس الأعلى للثقافة، م8، ط1، 2006، ص:27.

[22]- الرويلي ميجان والبازعي سعد، دليل الناقد الأدبي، ص:133.

[23]- إبراهيم عبد الله، التفكيك- الأصول والمقولات- ص:60.

[24]- عبد الحميد عبد الرحمن علي، النقد الأدبي بين الحداثة والتقليد، دار الكتاب الحديث، 2005، ص:216.

[25] – وغليسي يوسف، إشكالية المصطلح في الخطاب النقدي العربي الجديد، ص:357.

[26] – فيرناند هالين وآخرون، بحوث في القراءة والتلقي، تر: محمد خير البقاعي، مركز الإنماء الحضاري، ط1، 1998، ص:21.

[27] – المرجع السابق، ص ص:65،66.

[28] – زيما .ف. بيير، التفكيكية دراسة نقدية، ص:60.

[29] – قطوس بسام، المدخل إلى مناهج النقد المعاصر، ص:55.

*يرى جابر عصفور أن هذه الترجمة خاطئة خطأ فادحا ويؤثر ترجمة علم أنساق الكتابة على اعتبار أن (دريدا) يناقش منزلة الكتابة في هذا النسق المتواتر الذي هو نفسه لنسق كتابة.

[30] – إبراهيم عبد الله، التفكيك- الأصول والمقولات- ص:74.

[31] – عزام محمد، تحليل الخطاب الأدبي على المناهج النقدية الحداثية، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2003، ص:122.

[32] – وغليسي يوسف، إشكالية المصطلح في الخطاب النقدي العربي الجديد، ص:370.

[33] – الرويلي ميجان والبازعي سعد، دليل الناقد الأدبي، ص ص:158،159.

[34] – المرجع السابق، ص:77.

[35] – إبراهيم عبد الله، التفكيك- الأصول والمقولات- ص:79.

[36] – المرجع نفسه، ص:368.

[37] – جاد عزت محمد، نظرية المصطلح النقدي، ص:307.

[38] – المرجع نفسه، ص ص:307،308.

[39]- المرجع السابق، ص:365.

[40]- وغليسي يوسف، إشكالية المصطلح في الخطاب النقدي العربي الجديد، ص:365.

[41]- الرويلي ميجان والبازعي سعد، دليل الناقد الأدبي، ص:61.

[42]- المرجع نفسه، ص:308.

[43]- المرجع السابق، ص:377.

[44]- زيما .ف. بيير، التفكيكية دراسة نقدية، ص:78.

[45]- إبراهيم عبد الله، التفكيك- الأصول والمقولات- ص:70.

[46]- الرويلي ميجان والبازعي سعد، دليل الناقد الأدبي، ص:71.

[47]- وغليس يوسف، التفكيكية في الخطاب النقدي المعاصر، مجلة قوافل، النادي الأدبي بالرياض، مج5، ع9، 1997، ص:62.

* على الرغم من موجات الانتقاد التي تعرض إليها من الباحثين العرب كعبد الواسع الحميري، سعد البازعي في (استقبال الآخر).

[48]- حمودي محمد، تجربة القراءة النقدية عند عبد الله الغذامي، ص:33..

* هي العوامل نفسها المذكورة في تلقي السيمياء عربيا.

[49]- الغذامي عبد الله، الخطيئة والتكفير، النادي الثقافي الأدبي، جدة، السعودية، 1985، ص:86.

[50]- الغذامي عبد الله، تشريح النص – مقاربة تشريحية لنصوص شعرية معاصرة- دار الطليعة، بيروت، لبنان، ط1، 1987، ص:143.

[51]- الغذامي عبد الله، القصيدة والنص المضاد، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1994.

[52]– وغليسي يوسف، مناهج النقد الأدبي، ص:196.

[53]– وغليسي يوسف، النقد الجزائري المعاصر من اللانسونية إلى الألسنية، إصدارات رابطة إبداع الثقافية، الجزائر، 2002، ص:163.

[54]– قطوس بسام، استراتيجية القراءة– القراءة، التأصيل والإجراء النقدي– مؤسسة حمادة ودار الكندي، الأردن، 1998، ص:33.

[55]– حمودي محمد، تجربة القراءة النقدية عند عبد الله الغذامي، ص:36.

[56]– المرجع نفسه، ص:37.

[57]– عرار مهدي أسعد، التفكيكية بين النظرية والتطبيق– كان ما سوف يكون نموذجا– مجلة العربية، ع7، ص:25.

[58]– وغليسي يوسف، النقد الجزائري المعاصر، ص:163.

[59]– روابنية الطاهر، الكتابة وإشكاليات المعنى – قراءة في بنية التفكك في رواية تجرية في العشق – مجلة التبيين، ع6، 1993.

[60]– أزراج عمر، ثلاثة نصوص مترجمة حول مصطلح التفكيك، مجلة التبيين، الجزائر، ع6، 1993.

[61]– بوجدرة رشيد،"لقاح" مجموعة شعرية، المؤسسة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1983.

[62]– بوجدرة رشيد، "من أجل إغلاق نوافذ الحكم" مجموعة شعرية، تر: إنعام بيضون،الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981.

[63]– حمودي محمد، تجربة القراءة النقدية عند عبد الله الغذامي، ص:40.

[64]– بختي بن عودة، بوجدرة والدلائلية المختلجة "مقاربة تفكيكية في شعرية الإساءة"، مجلة كتابات معاصرة، مج5، ع21، بيروت، 1994، ص: 136.

المصادر والمراجع:

[1]- وغليسي يوسف، مناهج النقد الأدبي، جسور للنشر والتوزيع، الجزائر، ط2، 2009.

[2]- الرويلي ميجان والبازعي سعد، دليل الناقد الأدبي، المركز الثقافي العربي، دار بيضاء،المغرب ط2،2000.

[3]-جان غراندان، المنعرج الهرمينوطيقي للفينومينولوجيا، تر: عمر مهيبل، الدار العربية للعلوم، منشورات الاختلاف، ط1، 2007.

[4]- إبراهيم عبد الله، التفكيك- الأصول والمقولات- عيون المقالات، النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط1، 1990.

[5]- قطوس بسام، المدخل إلى مناهج النقد المعاصر،دار الوفاء، الاسكندرية،ط1،2002.

[6]- عزت محمد جاد، نظرية المصطلح النقدي، الهيئة العامة للكتاب، (د ط)، 2002.

[7]- حرب علي، هكذا أقرأ ما بعد التفكيك، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 2003.

[8]- البنكي محمد أجمد، دريدا عربيا، قراءة التفكيك في الفكر النقدي العربي، دار الفارس للنشر والتوزيع، ط1،2005.

[9]- الشرقاوي عبد الكريم، لغات وتفكيكات في الثقافة العربية، دار توبقال للنشر، ط1، 1998.

[10]- زيما .ف. بيير، التفكيكية دراسة نقدية، تعريب: أسامة الحاج، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط1، 1996.

[11]– سلدن رامان، من الشكلانية إلى ما بعد البنيوية، تر: جابر عصفور، المجلس الأعلى للثقافة، م8، ط1، 2006.

[12]– عبد الحميد عبد الرحمن علي، النقد الأدبي بين الحداثة والتقليد، دار الكتاب الحديث، 2005.

[13]– وغليسي يوسف، إشكالية المصطلح في الخطاب النقدي العربي الجديد،منشورات الاختلاف،الجزائر،ط2008،1

[14]– فيرناند هالين وآخرون، بحوث في القراءة والتلقي، تر: محمد خير البقاعي، مركز الإنماء الحضاري، ط1، 1998.

[15]– عزام محمد، تحليل الخطاب الأدبي على المناهج النقدية الحداثية، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2003.

[16]– جاد عزت محمد، نظرية المصطلح النقدي، الهيئة العامة للكتاب،(د ط)،2002.

[17]– وغليسي يوسف، التفكيكية في الخطاب النقدي المعاصر، مجلة قوافل، النادي الأدبي بالرياض، مج5، ع9، 1997.

[18]– حمودي محمد، تجربة القراءة النقدية عند عبد الله الغذامي،(مخطوط دكتوراه)، إشراف الدكتور العربي عميش، جامعة مستغانم،2008-2009.

[19]– الغذامي عبد الله، الخطيئة والتكفير، النادي الثقافي الأدبي، جدة، السعودية، 1985.

[20]– الغذامي عبد الله، تشريح النص – مقاربة تشريحية لنصوص شعرية معاصرة– دار الطليعة، بيروت، لبنان، ط1، 1987.

[21]- الغذامي عبد الله، القصيدة والنص المضاد، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1994.

[22]- وغليسي يوسف، النقد الجزائري المعاصر من اللانسونية إلى الألسنية، إصدارات رابطة إبداع الثقافية، الجزائر، 2002.

[23]- قطوس بسام، استراتيجية القراءة- القراءة، التأصيل والإجراء النقدي- مؤسسة حمادة ودار الكندي، الأردن، 1998.

[24]- عرار مهدي أسعد، التفكيكية بين النظرية والتطبيق- كان ما سوف يكون نموذجا- مجلة العربية، ع7.

[25]- روابنية الطاهر، الكتابة وإشكاليات المعنى – قراءة في بنية التفكك في رواية تجربة في العشق – مجلة التبيين، ع6، 1993.

[26]- أزراج عمر، ثلاثة نصوص مترجمة حول مصطلح التفكيك، مجلة التبيين، الجزائر، ع6، 1993.

[27]- بوجدرة رشيد،"لقاح" مجموعة شعرية، المؤسسة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1983.

[28]- بوجدرة رشيد، "من أجل إغلاق نوافذ الحكم" مجموعة شعرية، تر: إنعام بيضون،الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981.

[29]- بختي بن عودة، بوجدرة والدلائلية المختلجة "مقاربة تفكيكية في شعرية الإساءة"، مجلة كتابات معاصرة، مج5، ع21، بيروت، 1994.